28-01-2021

يا بنتي، أو محاولة تعريب أمومة كاريبيّة

يا بنتي، أو محاولة تعريب أمومة كاريبيّة

زينة الحلي

تذكر جامايكا كينكيد علاقتها الحميمة بوالدتها، كيف بَنَت خلال سنواتها التسع الأولى عالماً عاطفياً يدور في فلك الأم. تصف كينكيد انسيابية تلك العلاقة التي تداخلت فيها الشخصيتان وانصهرتا، إلى أن تعرّضت البنت الوحيدة إلى صدمة ستغيّر مجرى حياتها. فعلى مدى خمس سنوات أنجبت الأم من زوجها الثاني ثلاثة أطفال ذكور تاهت في تربيتهم فشطّ اهتمامها عن ابنتها. كان لتجربة الإهمال المادي والعاطفي تلك أثر على كينكيد سيطبع أعمالها الأدبية.

تتحدّث كينكيد في أعمالها عن إهمال أمّها، الذي تجلّى في الشرخ الذي بدأ يتّضح بين أحلام الأم لأولادها الذكور وأحلامها الصغيرة لبنتها الوحيدة. لم تلبث كينكيد أن أُخرجت من المدرسة، هي المتفوقة التي لم يتصوّر لها أحد مستقبلاً. ستترك الفتاة الكاريبية مسقط رأسها أنتيجوا وسترحل إلى أميركا لتعمل ولو مؤقتاً حاضنة لأطفال عائلة أميركية. لم تَفُتها المفارقة أن البنت التي هجرتها والدتُها انتهت حاضنة لأربع فتيات لا يربطها بهنّ شيء.

في أميركا، لن ترسل مالاً إلى عائلتها، ولن تفتح حتى رسائل والدتها؛ رسائل بقيت مختومة على مدى

ثلاثة عقود. ستصبح جامايكا كينكيد قاصّة وروائية، ارتبط اسمها بالسيرة الذاتية في روايتَيْ **آني جون** (1985) و**لوسي** (1991)، حيث ستعود مراراً في سردياتها إلى علاقتها المبتورة بوالدتها التي تناولت حياتها في **السيرة الذاتية لوالدتي** (1996).

نشرت كينكيد «Girl» سنة 1978، ليصبح من أكثر النصوص حضوراً في أنطولوجيات الأدب النسوي والأنغلوفوني والكاريبي. ليس النص مقالاً، وليس شعراً، ولا هو قصة.

يتكوّن النص من جملة واحدة طويلة تتوجّه فيها إحدى حارسات الأبوية إلى بنتها في سلسلة من النصائح حول ضرورة إتقان البنت للطبخ وصَونها لعفّتها والاعتناء برَجُلها؛ تُعلّمها كيف تسيطر على انفعالاتها حيناً، وكيف تستعين بحواسها أحياناً؛ كيف تبحث عن نظرة الرجل وتأسرها؛ كيف تضبط جسدها علناً وتعاقبه سراً؛ كيف تتعايش مع العيب فيها؛ كيف تنظر إلى المرآة فلا ترى سوى المرأة الداشرة التي تربّت على نبذها.

تحثّ الأمّ بنتها على الحفاظ على سُمعتها، فيما تعلّمها التحايل على نظام أبوي يحدّ من خيالها وجسدها معاً. ولكنها، في الوقت ذاته، تقول لها إن تلك الممنوعات يجب ألا تُثنيها عن فعل ما تريد، والتصرّف كما يحلو لها. تقسو عليها كي تمكّنها من تحصين موقعها داخل النظام الذي يحدّها. للوهلة الأولى، يبدو النص مستقرّاً، ثابتاً في لغته ومعانيه، ولكنه لا يلبث أن يتحوّل سخرية تنزل عليكِ ناراً وقلقاً.

النص غنيّ بالمحكية الكاريبية، تتداخل فيه الفودو والكنيسة والأساطير المحلية ويوميات طبقة المزارعين وصيادي السمك على شواطئ الجزيرة الصغيرة. للنص خصوصية ثقافية، نعم، ولكنّه يَصِلُكِ متحرّراً من حدوده اللغوية والثقافية. هو غريب عليك، ولكنك تعرفينه جيداً: فلا بدّ أنّ إحدى حارسات الأبوية أحبّتكِ وربّتكِ وعلّمتكِ وأنّبتكِ واستشاطت غضباً حين عانقتِ أحدهم أو استبدلتِ دروس الدين بدروس في الحياة، مثلاً. فلو كان النص في العربية، ماذا كان ليقول؟

هنا تبرز إشكالية الترجمة.

كيف أترجم هذا النص؟ كيف أتحدّث بصوت أمٍّ لستُ هي، ولكن بصوت ليس غريباً عليّ؟ كيف لأمّ كاريبية لا تتكلّم لغتي أن تتمكّن من تفاصيل حياتي، أنا، بذلك السحر وتلك الخفّة؟ كيف أنقل نصّاً أعرف أنه لم يوجَّه إليّ، ولكنّي أعلم جيداً أنه يعنيني؟ تعثّرت كثيراً، في الحقيقة، فقمت بنقله إلى العربيّة في محاولات ثلاث.

في المحاولة الأولى، ترجمت كلمات النص ومعانيه الحرفية إلى الفصحى. جعلته متاحاً بالعربية محاولةً قدر المستطاع نقل الجملة الكاريبية إلى العربية. كانت تلك المحاولة لتقدّم درساً نادراً في الأنثروبولوجيا (مثلاً: كيف كنتِ ستعرفين أغاني البينا المتحرّرة لولاي؟). بالرغم من دقة هذه المحاولة ورصانتها، إلا أنها بَدَتْ عقيمة، فقد جعلت النص مقفلاً، عاجزاً عن القول، ذلك أنّي لم أعثر على حساسية النص الأصيل في النص المترجم، أي إن النص الأصيل بقي متخفياً وناقصاً.

في المحاولة الثانية، قمت بترجمة النص حرفياً، ولكني تلاعبت بالمستوى اللغوي فوضعته بالعامية الشامية. شكّكت في قدرة الفصحى على نقل حميمية النص الأصلي، فرأيت في المحكية الشامية، أي لغتي الأم، قدرة على محاكاة لغة الجسد والتأنيب التي ظننتُ الفصحى عاجزة عنها. كانت النتيجة درساً آخر في الأنثروبولوجيا، ولكن بالعامية هذه المرة (مثلاً: كيف كنتي رح تعرفي أغاني البينا بلايي؟). فها هو النص المترجَم يحوّل الكاريبية إلى العامية الشامية، فيقترب أكثر من المَعيش والحميمية ولغة الأمّ. هو نص جديد ولكنه بقي خالياً من القول.

في المحاولة الثالثة، عدلت عن ترجمة النص وفضّلت تعريبه. فهمت أن ما يجعل النص الأصلي متماسكاً وساحراً ليس في الحقيقة مستواه اللغوي ومكوّنه الثقافي، أي العادات والمأكولات والأساطير الكاريبية. ما يجعله نصاً متماسكاً قادراً على القول هو تلك الحساسية التي تفرزها علاقة الأم بابنتها في نظام أبوي لا نحتاج إلى اللغة أو الإشارات الثقافية للدلالة عليه؛ تجربة حياتية تنتقل إلينا متحرّرةً من التزامات الترجمة بالوفاء إلى الكلمة أولاً. عندما فهمت ذلك، ذهبت إلى التعريب. عندئذ، رحل النص من الكاراييب واستقرّ أمامي في جبل لبنان: تحدّث بلساني، ولبس زِيّي، وحاكى موسيقاي (مثلاً: كيف كنت ستعرفين أغاني سارية السواس المتحرّرة لولاي؟).

هذه ليست إذاً ممارسة في الترجمة أو النقل الوفيّ للمعنى اللغوي، بل هي ممارسة في التعريب، أي جعل النص متاحاً ليس في اللغة فحسب، بل في التجربة أيضاً. هي ممارسة في تعريب أمومة كاريبية في محاولة قد لا تكون الأخيرة، ولكنها قد تقول شيئاً إضافياً هذه المرة.

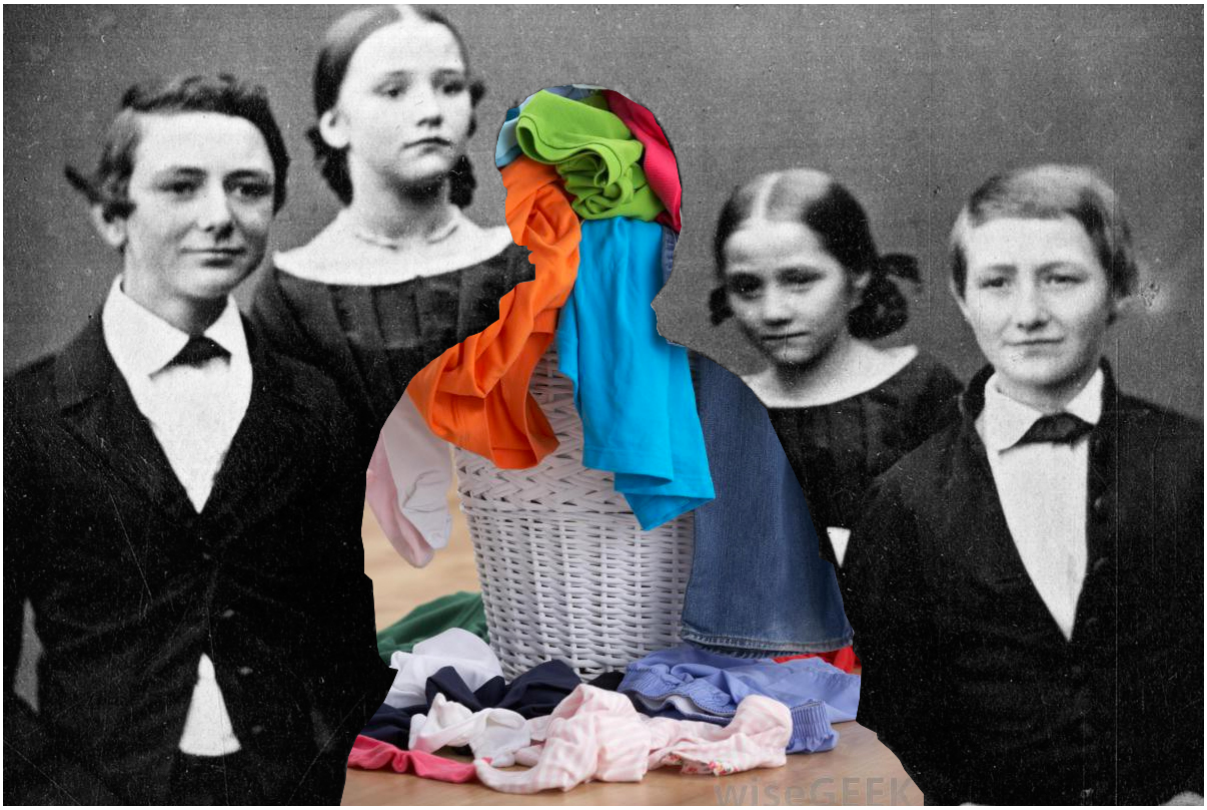

يا بنتي

اغسلي الملابس العادية وانشريها على حبل الغسيل المُطِلّ على الجيران؛ اغسلي الملابس الداخليّة وانشريها على حبل الغسيل غير المُطِلّ على الجيران؛ لا تجلسي دون منديل في العزوات؛ اقلي العوّام بزيت نباتي واستعمليه مرّتين فقط؛ غيّري الكوتيكس كلّ ساعتين؛ عندما تشترين الصوف لحياكة كنزة جميلة، تأكّدي أنّ الصوف خالٍ من النايلون، وإلا لن تصمد الكنزة في الغسيل؛ انقعي الحُمّص ليلاً واطبخيه نهاراً؛ هل صحيح أنك تغنّين لسارية السوّاس ليلة الجمعة؟ تناولي طعامك

دائماً بطريقة لا تُقرف أحداً؛ ليلة الجمعة، حاولي أن تمشي كبنت عيلة، وليس كالداشرة التي تصرّين أن تكونيها؛ لا تغنّي لسارية السوّاس ليلة الجمعة؛ إياكِ أن تتكلّمي مع زعران السوق، ولا حتى لِدَلّهم على الطريق؛ لا تأكلي الفاكهة في الشارع سيلاحقك الذباب؛ *ولكني لا أغنّي لسارية السوّاس ليلة الجمعة أبداً، ولا أغنّي لها خلال الدروس الدينية إطلاقاً*؛ هكذا تخيطين زرّاً؛ هكذا تقوّرين فتحة للزرّ حين تنتهين من خياطته؛ هكذا تقطّبين فستاناً مقوّراً عند الصدر، كي تتجنّبي الظهور كالداشرة التي أعرف أنك مصمّمة على أن تكونيها؛ هكذا تَكوينَ قميصَ أبيكِ المرقّط دون أن تتركي أيّ ثنية فيه؛ هكذا تكوين بنطلون أبيك المرقّط دون أن تتركي أيّ ثنية فيه؛ هكذا تزرعين التين بعيداً عن البيت، لأنّ التين مرتع النحل؛ عندما تقطفين الفجل، انقعيه جيداً، وإلا سيحرق الحلق عندما تأكلينه؛ هكذا تشطفين الدرج؛ هكذا تشطفين بيتاً كاملاً؛ هكذا تشطفين أرض الدار؛ هكذا تضحكين لمن لا تحبّينه كثيراً؛ هكذا تضحكين لمن لا تحبّينه أبداً؛ هكذا تضحكين لمن تحبّينه كثيراً؛ هكذا تُعدّين صِدر المتّة؛ هكذا تُعدّين صِدر العشاء؛ هكذا تُعدّين صِدر العشاء لضيف مهمّ، هكذا تُعدّين صِدر الغداء؛ هكذا تُعدّين صِدر الفطور؛ هكذا تتصرّفين أمام رجال لا يعرفونك جيداً، وهكذا، لن يلاحظوا فوراً الداشرة التي حذّرتُك من أن تكونيها؛ احرصي على التشطّف يومياً، حتى بلعابك إن اضطررتِ؛ لا تُقرفصي وأنت تلعبين الكلّة فأنت كما تعلمين لستِ صبياً؛ لا تقطفي زهور الآخرين قد تصيبك عدوى ما؛ لا ترمي مربّع القماش المحشوّ من تحت وسادتك، لأنه قد يكون شيئاً آخر؛ هكذا تحضّرين السكّر لإزالة شعرك الزائد؛ هكذا تحضّرين شراب التوت؛ هكذا تحضّرين الهريسة؛ هكذا تحضّرين خلطة فعّالة للرشح؛ هكذا تحضّرين خلطة فعّالة لقطف آخر العنقود قبل أن يصبح طفلاً؛ هكذا تخبزين الطلامة؛ هكذا ترمين الطلامة العفنة، كي تتجنّبي الحرام؛ هكذا تأكلين رأس رجل؛ هكذا يأكل رجل رأسك؛ هكذا تُبسطين رجلاً، وإن لم ينجح ذلك هناك طرق أخرى، وإن لم تنجح تلك، لا تزعلي كثيراً من الفشل؛ هكذا تبصقين قشر البزر عندما يحلو لك، وهكذا تصوّبين القشر كي لا يقع عليك؛ هكذا تؤمّنين لقمة عيشك؛ اقرصي الخبز دائماً كي تتأكدي من طزاجته؛ *ولكن ماذا لو لم يسمح لي الفرّان لمس الخبز؟*؛ هل تقصدين أنّكِ، بعد كلّ ذلك، ستكونين فعلاً تلك المرأة التي لا يسمح لها الفرّان بالاقتراب من الخبز؟

زينة الحلبي: أستاذة في الأدب العربي في الجامعة الأميركية في بيروت. تعمل على تحولات مفهوم الالتزام في الأدب وصدر لها كتاب عن صورة المثقف في الأدب العربي المعاصر.

هذه المادة جزء من هامش 2: العدد الثاني من الملحق الثقافي لموقع الجمهورية. يتضمن العدد:

ملف العدد: مطرقة الأمهات÷
يا بنتي، أو محاولة تعريب أمومة كاريبيّة لزينة حلبي؛ كيف تتخلّصين من أمك لسارة مراد؛ بلالايص ومواسير وجرادل: الأم/الوطن في الفن المصري الحديث لشادي لويس؛ أمّيّات لرنا عيسى؛ الذراغ كُوين/كينغ: أُسَر ممتدّة وحضن استعراض آمن لعمار المأمون؛ أمهات السينما التونسية: من سردية الاضطهاد إلى الخروج من الجلباب لياسين النابلي؛ سير مقتضبة لأمّهات مُومِسات لريم بن رجب؛ تحرّيات بين صور الحوامل لوديعة فرزلي؛ في حضرة فارسات المكانس لرشا عباس.

تغطيات÷
دار نشر هُنَّ لهبة محرز؛ المحتوى العربي على نتفلكس: أسئلة الرقابة والحرية لنبيل محمد؛ منمنمات محمد فرج العمرانية مقابل سطوة الرواية لنائلة منصور؛ لقاء مع خالد بركة مؤسس منظمة كوكلتشر في برلين؛ لقاء مع أحمد طوباسي وشذى يونس: مسرح الحرية الفلسطيني لروني هلون.

نصوص أدبية÷
مختارات من قصائد ورسائل لألبرتين سارازان؛ أسود الكنيسة لأحمد ناجي؛ مشاعر بنوّة قاتلة لمارسيل بروست.

أُنتج هذا العدد من ملحق هامش الثقافي بدعم من مؤسسة فورد Ford Foundation.